الباب الرابع

الثورة والقضاء على العهد القديم

من ٥ مايو سنة ١٧٨٩ — ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩

الفصل الأول

لويس السادس عشر والأزمة

ولى لويس عرش فرنسا سنة ١٧٧٤ كما أسلفنا فى العشرين من عمره وهو آخر من كان ينبغى أن يتقدم إلى تسيير سفينة الحكم فى ذلك الجو العاصف وتلك اللجة الفوارة لو أن فى الأمر خيارا لمن يتولى الملك . ذلك لأن الأزمة التى كان حتما عليه أن يعالجها كانت تستلزم رجلا ثاقب الرأى ماضى العزيمة فشاءت الأقدار أن يتولى علاجها عديم الرأى خائر الهمة وأن يتزوج من خرقاء فضولية حمقاء ، وأن يلتمس المعونة ممن حوله فلا يصيب الا كل نفعى رجعى يعمل لمصلحة نفسه أولا ثم يعكس على الملك رغبة

لويس السادس عشر

فى الاصلاح ويجارى الملكة فى خرقها ويدفع الشعب الهائج فى سبيل الثورة خطوة جديدة

(١) فترة الاصلاح :

وجلس الملك فى بدء عهده يفكر فيمن يكون وزيرا له ورئيسا لحكومته فقر رأيه أخيرا على تعيين (ماشولت) ولكن أخته مدام أديلايد تدخلت فى آخر لحظة وأرسل نفس الخطاب الذى كان معينا به ما شولت الى الكونت (مورپا) وهكذا تم تعيين رئيس وزارة لويس السادس عشر (١).

وكان مورپا هذا وزيرا فى عهد الملك لويس الخامس عشر ولكنه أقصى عن الحكم وظل مغضوبا عليه بقية أيام ذلك الملك فلما رشحته مدام أديلايد لهذا المركز الجديد جعل أول همه أن يتشبث به وأن يرسم خططه السياسية بما يتفق مع هذه الغاية الشخصية فكان لا يمتنع أن يرجع اليوم فى قضاء قضاه بالأمس متى آنس فيه خطرا على مركزه ولا يتردد فى أن يخلع اليوم وزيرا عينه بالأمس فى وزارته متى أوجس منه خيفة على نفوذه . وظلت سياسة فرنسا تتزحلق وتتذبذب مع اهواء هذا الوزير حتى مات سنة ١٧٨١

(١) Moderu Europe. (Lodge.)

فتولت الملكة بعده تسيير الأمور وتعيين الوزراء وكانت فى إشرافها على الملك أشأم من وزيره الذى عينته له أخته

ترجو : (TURGOT)

غير أن مورپا وإن كان فى نفسه قليل الاهتمام بالاصلاح لم يكن يرى بأساً من أن يقوم غيره بما لا يكون فى إجرائه خطر عليه هو شخصياً . فعين [ترجو] ليكون وزيراً للمالية فى وزارته وترجو فى ذلك اليوم أقدر أبناء فرنسا على تولى شئونها المالية وتنظيم ادارتها ؛ وكان دخل الدولة عند تولية الوزارة ٢١٣ مليوناً من الجنيهات والمنصرف نحو ٢٣٥ مليوناً . فكان العجز حوالى ٢٢ مليوناً ولكن لم تمض عليه فى الوزارة سنة ونصف سنة حتى بلغ الوفر فى خزائن الدولة نحو ١١ مليون جنيهاً . غير أنه لم يكن ليصل الى هذه النتيجة السارة الا بالتقتير والاقتصاد وهذا ما دعا الى أن يغضب عليه رجال البلاط الذين لا مرتزق لهم من غير الاسراف والتفريط . واستاء الأشراف كذلك وأوجسوا من سياسته الاقتصادية على امتيازاتهم وسخط عليه رجال الدين أيضاً ولا سيما لأنه كان صديقاً حميما لڤولتير (الملحد) . وتصادف وقوع مجاعة زادت فى سخط الأهلين على الحكومة . وكانت مدعاة لقيام الفتن والمظاهرات . وأوشك ترجو أن يتزعزع مركزه بما سارع الاشراف

الى اتهامه به عند الملك من سوء التدبير وتحميله مسئولية الموقف . ولكنه نجح أخيراً فى استعادة مكانته عند الملك والحصول على رضاه مرة أخرى حتى لم يتردد لويس فى اعلان اعجابه بسلوكه والتصريح بأن ليس على ظهر فرنسا كلها من يحب الشعب الفرنسى غيره هو . . . وترجو

فتألب عظماء الأشراف والاكليروس على هذا العدو المشترك وتآمروا عليه خشية أن يكون بقاؤه فى مركزه قاضياً على نفوذهم وثارت الحزازات فى نفوس الوزراء وبخاصة كبيرهم مورپا فعول على التخلص منه بأى ثمن كان . وشرع يتصيداه فى جميع مشروعاته واصلاحاته ولكن ذهبت جهوده كلها عبثاً فى هذا السبيل ولما أعيته الحيلة فى حمله على تقديم استقالته بنفسه . لجأ الى الوقيعة به والدس عليه . فاصطنع ورقة قلد فيها خط ترجو وضمنها قذفاً فى حق الملك والملكة ثم قدمها للويس فثار لها واحتد . وأقال من خدمته الوزير الوحيد الذى كان يرجى له الخلاص على يديه وهكذا انسحب ترجو مكرهاً من ميدان العمل وأدركته منيته بعد ذلك بقليل (سنة ١٧٨١) م

نِكَرْ : (NECKER)

أسندت وزارة المالية بعد ذلك الى نكر . وهو رجل سويسرى من كبار الماليين نشأ فى مدينة جنيف بلدة روسو الكاتب القدير

نكر

ثم نزل بفرنسا كما فعل سلفه العظيم وكانت سمعته المالية الطيبة سببا فى اسناد هذا المنصب إليه . اما خطته فكانت ترتكز على تدبير دخل الدولة حتى يكفى حاجاتها العادية . فاذا قامت بالبلاد حاجة الى مشروعات أخرى غير منظورة فالوسيلة الى تحقيقها عقد القروض مع الدول الأخرى على أن تكون هذه القروض بأقل ربح ممكن . وكان لا بد لتحقيق ذلك من تحسين سمعة البلاد المالية فلجأ الوزير الى خطة جديدة لم تكن اعتادتها البلاد من قبل وهى نشر حسابات الدولة على الجمهور حتى يطلع عليها الجميع وبذلك تنشأ الثقة المالية التى كان ينشدها . ولكى يضمن لهذا النظام ان يظل راسخا ثابتا رأى ان لا تجبى ضريبة جديدة الا بعد موافقة الأهالى عليها . فكان عمله هذا تمهيدا لانعقاد [الجمعية العمومية] التى تعتبر فى التاريخ نذير الثورة وفاتحة عصرها .

ولقد كان من المنتظر ان تنقشع امام هذه الخطة الحكيمة التى رسمها نكر أشباح الضيق المالى الذى كانت تعانيه فرنسا منذ زمان لولا اشتراكها فى حرب استقلال الولايات الأمريكية وتورطها فى ديون جديدة أفدحتها وكانت سببا فى زيادة تحرجها وارتباكها .

اما هذه الحرب فسببها ان انجلترا ارادت فرض ضرائب جديدة على مستعمراتها الأمريكية فنازعتها المستعمرات فى شرعية تلك

الضرائب وانتهى الأمر بوقوع الحرب بينهما فتطوع كثير من الفرنسيين للقتال فى صف الأمريكيين انتقاما لفرنسا من عدوتها انجلترا التى اغتالت كثيراً من مستعمراتها فى (حرب السبع السنوات) وظل تيار المتطوعين يتدفق ويطغى إلى أن تحرج مركز الحكومة وأصبح من المحتم عليها أن تساير شعور الأمة . فتشترك اشتراكا رسميا فى هذه الحرب وأخيرا شجعها على خوض غمار هذه المعركة ماحصل عليه الثوار من الانتصارات الباهرة التى لم تدع شكا فى نتيجة الحرب وأنها سوف تدور الدائرة فيها على الانجليز . فقررت فرنسا الانضمام الى الولايات الامريكية ومن حسن حظها أن انجلترا لم تفلح فى الحصول على معاونة أية دولة من دول اوربا . فكان اجل الحرب لذلك قصيرا . وخرجت منها فرنسا منصورة ظافرة ولكنها خرجت كذلك وقد لوثت رجالها عدوى الثورة وأفرغت خزائنها نفقات الحرب

وهكذا انعكست تدبيرات نكر ونقض غزله و بددت الحرب فى فترة قصيرة ما جمعته يداه فى الليالى الطوال (١٧٧٧-١٧٨١م) فلم ير أمامه مفزعا يرجع إليه إلا ما كان قد رسمه ترجو قبله من خطط الاقتصاد فى الوظائف والأقلال من الامتيازات فكان جزاؤه على ذلك ماجوزى به ترجو أيضا من قبل واعتزل الخدمة سنة ١٧٨١م .

(ب) الوزراء المفسدون :

استقال نكر و مات مور يا بعده بقليل وظهرت مارى أنتوانت علنا فى ميدان السياسة والحكم . وكانت قد بدأت تفقد شخصيتها المحبو بة المحترمة فى نظر الشعب الفرنسى لكثرة ماذاع حول اسمها من التهم بالحق وبالباطل فكان بعض الناس يتهمها بأنها تكره الشعب الفرنسى بسبب جنسيتها النمساو ية فبادلها كراهة بكراهة . وكان بعضهم يتهمها بتبديد مال الدولة على ملابسها و رياشها وخدمها وكلابها فبادلها تبديد مال بتبديد سمعة وكان بعضهم يتهمها بأنها تحتقر الملك وتخونه فكان نصيبها منهم التشهير والتعيير والاحتقار .

وو لى و زارة المالية بعد نكر فى هذا العهد الجديد من لم يقم فيها غير شهور معدودة أضاف أثناءها إلى ديون المملكة ٣ ملايين من الجنيهات ثم استقال .

فجاء بعده آخر وطالت إقامته حتى بلغت سبعة شهور كان كل عمل من أعماله فى خلالها لسانا ناطقا بأن فرنسا تعلن إفلاسها للجميع وأخيرا جاء دوره فطرد وتقدم نساء البلاط بالرجاء الى الملكة لتأمر بتعيين (كالون) و زيرا للمالية فتم تعيينه .

أما الرجل فكان أسخف وأجهل من و لى الامر فى محنة كالتى

كان يجتازها الشعب الفرنسى فى ذلك العهد ! جعل دأبه اخفاء الحقيقة وهمه الأول إرضاء الملكة وإجابة مطالب البلاط . وأكثر من الحفلات والزينات الى حد أدهش الناس جميعا وألقى فى روعهم أنه بز ترجو فى سياسة المالية وفاق نكر . ولكن تحقيقا أجرى بعد ذلك أسفر عن أنه عقد قروضا كثيرة . وأن العجز السنوى قد زاد زيادة عظيمة فثارت عليه الخواطر وأصبح موضع سخط الجميع واحتقارهم . فرفته الملك .

ورقى الوزارة بعده (برين) . وكان موقف البلاد المالى قد تعقد الى الحد الأقصى وبلغ ارتباكه الغاية التى ليس وراءها غاية فان الاقتصاد الذى كان خير علاج فى الماضى أصبح لامحل له فى الأزمة الراهنة . ولم يبق للنجاة غير طريق الضرائب وهو ما لا طاقة لدافعى الضرائب اذ ذاك باحتماله . أو طريق القروض وهو ما ليس إليه من سبيل بعد ضياع سمعة البلاد المالية . أو طريق التضحية من جانب أصحاب الامتياز وهو ماجعلته أنانيتهم حلما من الأحلام يراه الناس فى المنام .

وهكذا دفع برين قصر نظره الى إدخال رأسه راضيا مختارا فى هذه الشبكة المختبلة وكانت تخبطاته سببا فى أن تتفق كلمة (برلمان باريس) — وكان بمثابة محكمة عليا — (ومجلس الأعيان) والهيئات الدينية ،

برين
Brienne

وعامة الشعب ، على وجوب عقد الجمعية العمومية التى ما كادت تجتمع حتى انصرفت وجهتها الى غير ما اجتمعت له و بدلا من أن تنظر فى علاج الأزمة المالية دخلت مع الملك فى نزاع سياسى أفضى الى عصيان أوامره والاشتباك معه فى تلك المعركة الدموية الطويلة التى تعرف فى التاريخ باسم الثورة الفرنسية .

وبيان ذلك أن برين تقدم الى برلمان باريس بمشروع قانون يقضى بأن تشترك طوائف الأمة جميعها فى دفع الضرائب فرفضه البرلمان واستنكره . ولم يكن هذا البرلمان هيئة نيابية كما يتوهم القارىء من اسمه ولكنه كان هيئة مؤلفة من بعض رجال القانون يستعين بها الملك فى اصدار أوامره . فنشأ أداة فى يده ومصنعا لعمل المرسومات والقوانين . ولكنه لم يلبث أن انقلب على الملك حربا . ذلك أن المراكز فيه أصبحت تباع لمن يدفع للحكومة ثمنها ومن حق من يدفع أن يدعى لنفسه شيئا من السلطة . وكانت العادة قد جرت بأن لا يصدر عن الملك أمر الا بعد تسجيله فى هذا البرلمان واقرار أعضائه له . فاكتسب الأعضاء بذلك صفة تشريعية لأنهم لو امتنعوا عن الموافقة على أى قانون لتعطل أثره و بطل فعله . ولذلك رأى الملك أن يحتاط لمقاومة البرلمان واعتراضه . فابتكر اجراء آخر وهو أنه اذا حضر بنفسه نظر قانون من القوانين فلا بد

للبرلمان من اقراره والموافقة عليه ويعرف هذا الأجراء باسم (Lit de Justice) أوكما يسمونه « سرير العدل » .

ولقد انتشر هذا العرف فى الأقاليم فأصبح لكثير منها برلمانات يرجع اليها قبل اصدار القوانين الخاصة بتلك الأقاليم . واكتسب أعضاء هذه البرلمانات من الامتيازات ما جعل مصالحهم فى آخر الأمر تتضارب مع مصالح الملك والحكومة فانضموا الى قوة المعارضة التى كانت تحارب عسف التاج ووزرائه ولكن انضمامهم هذا لم يكن عن حب للشعب وتأييد لمطالبه وانما كان كما فهمت تحقيقا لاغراضهم الشخصية ومحافظة على مصالحهم المادية .

وفى عهد لويس الخامس عشر أراد الوزير (موپو) أن يتخلص من هذه البرلمانات جملة واحدة لتنطلق يده فى هذه البلاد بما يشاء سيده فقرر الغاءها وأنشأ مكان برلمان باريس هيئة أخرى مؤلفة من ٧٥ عضوا يعينهم الملك بنفسه وقد أطلق الناس على هذه الهيئة اسم (برلمان موپو) استخفافا بها وبمنشئها .

فلما مات لويس وسقط موپو ألح الناس فى طلب هذه البرلمانات واعادتها فاعترض ترجو وزير المالية على العودة الى تلك الهيئات الرجعية التى لم تكن تعرف غير مصالحها الخاصة . ولكن الشعب كان قد نسى عنها كل شىء . ولم يبق ماثلا فى ذهنه عنها

موبو

الا قوة معارضتها للملك وأنها كانت ضحية من ضحايا استبداده . ولذلك أصر على اعادتها فأعادها مورپا وزير لويس السادس عشر وهو لا يرجو بذلك الا الحظوة عند الشعب والحصول على رضاه .

وأخيرا جاء برين الذى نتحدث عنه وعرض مشروعه الجديد على برلمان باريس هذا كما أسلفنا فرفضه البرلمان ولكن لويس استعمل حقه المعروف [بسرير العدل] فوافق البرلمان على المشروع غير أنه قدم احتجاجا على تصرفات الملك ووزيره فى هذا الموضوع وكان جزاؤه على ذلك أن نفى أعضاؤه من باريس ولكن برين عاد فوجد أنه لاغنى له عن البرلمان فيما ينوى اصداره من القوانين الأخرى فاستعاد الأعضاء من جديد وعرض عليهم مشروع قانون يخول للحكومة جباية ضريبة جديدة فرأى أعضاء البرلمان ان يكتسبوا عطف الأمة باحالة الأمر عليها والأشارة بوجوب استفتائها فى تقرير هذه الضريبة واقترحوا بناء على ذلك دعوة « الجمعية العمومية » وهى هيئة نيابية تتألف من نواب الطوائف الثلاث : الأشراف ، والأكليروس ، والعامة ، ولكنها لم تكن دعيت للاجتماع منذ سنة ١٦١٤ وكانت فكرة برلمان باريس التى يرمى اليها من هذا الاقتراح هى كما أسلفنا الاحتماء فى الرأى العام . واحراج موقف الحكومة . ولكن ما كان ليبتئس لويس ولديه (سرير العدل) الذى ابتدع لمثل هذا الموقف ففاجأهم (بسرير) فوافقوا بعده على القانون ثم انتقم لنفسه

من زعماء المعارضة بنفيهم فتعالت أصوات الاحتجاج وازداد عطف الأمة على البرلمان وأخيرا فكر برين التعس فى أن يقتبس عن مو پو خطته الاستبدادية العتيقة ويلغى عمل البرلمان ولكن عاصفة السخط والاستنكار التى هبت فى وجهه عقب ذلك أرغمته على العدول عن رأيه والعودة الى العمل بمعاونة الهيئات الرسمية التى تعرفها البلاد. فعقد مجلسا من رجال الدين أملا منه فى الحصول على شيء من مال الكنيسة ولكن المجلس بدأ قراراته بطلب استدعاء الجمعية العمومية فلم يبق أمام الحكومة بد من الرجوع الى هذه الجمعية فصدر مرسوم الملك باجراء الانتخابات بحيث تنعقد الجمعية فى مايو سنة ١٧٨٩م واستقال بعد ذلك برين واضطر الملك لاستدعاء نكر من جديد.

الفصل الثانى

الجمعيـــة العموميـــة

لعلك لم تنس بعد أن الحكومة فى فرنسا كانت حكومة استبدادية وأن سلطة الملك فيها كانت سلطة مطلقة بمعنى أنه يستطيع أن يعفى المدين من ديونه فلا يبقى لدائنه حق مطالبته بتلك الديون وأنه يستطيع أن يأمر بالقاء أى انسان فى السجن لغير سبب شرعى ومن غير أية محاكمة قانونية فيلقى فيه الى أن يشاء الله وأنه يستطيع كذلك أن يعترض تنفيذ أى قانون فيبقى معطلا كأن ليس له فى الدولة وجود . وصور لنفسك بعد ذلك ماشئت من التصرفات التحكمية ثم انسبها الى سلطة ملك فرنسا فى ذلك العهد تكن غير متجاوز فى قولك حدود تلك السلطة .

ولكن الملك كان يرجع الى بعض الهيئات الاستشارية من حين الى حين للاستئناس برأيها فيما يريد أن يقدم عليه من الأمور دون أن يتقيد برأى تلك الهيئات ودون أن يكون لها عليه أى سلطان . وكان من بين تلك الهيئات هيئة عامة تمثل طوائف الأمة الثلاث : الأشراف . ورجال الدين . والشعب . وكانت هذه الهيئة النيابية

العامة تسمى « الجمعية العمومية » وكان نواب كل طائفة من طوائفها يجلسون منفصلين فى مداولاتهم وقراراتهم . لكل جماعة منهم قاعة خاصة بهم لا يجالسهم فيها نواب الطائفتين الأخريين . وجرت العادة أن تعطى كل جماعة من هذه الجماعات صوتها فيما استشيرت فيه . فكان الرأى الراجح هو الذى يجتمع عليه صوت مجلسين من المجالس الثلاثة وكانت الأغلبية بذلك دائما فى جانب الأشراف ورجال الدين نظرا لاتفاق صوالحهم فى وجهة نظرهم إلى الأمور واختلافهم فى ذلك عن الطائفة الثالثة . وهى طائفة الشعب . ولقد انعقدت هذه الجمعية العمومية للمرة الأخيرة سنة ١٦١٤ م ثم لم تدع للانعقاد بعد ذلك حتى وقعت الأزمة المالية التى نحن بصددها فى عهد لويس السادس عشر وكان ما كان من إصرار الهيئات الأخرى جميعها على وجوب استفتاء الأمة ممثلة فى هذه الجمعية فصدر قرار الملك فى ٨ أغسطس سنة ١٧٨٨ م باجراء الانتخابات العامة وتحدد يوم ٥ مايو سنة ١٧٨٩ لانعقاد الجمعية فى قصرها بفرساى .

وهنا ملاحظة جديرة بالاعتبار وهى أن الشعب الفرنسى كان قد تطور تطورا جسيما منذ سنة ١٦١٤ م بحكم ما مر عليه من الحوادث الجسام فى عهد لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر وبحكم ما سبق لنا بيانه من العوامل عند البحث فى أسباب الثورة

فكان من غير الميسور أن تخرج فرنسا سنة ١٧٨٩ م هيئة نيابية تشبه فى خضوعها واستسلامها تلك الهيئات التى كانت تخرجها قبل سنة ١٦١٤ ولكن الملك ورجال البلاط نسوا هذا الاعتبار وأغفلوه أو قل أنهم تناسوه عامدين وتغافلوا عنه قاصدين . فأنهم حينما قر رأيهم على عقد هذه الجمعية ظلوا يرجون أنها تلتقى كما كانت تفعل فى العصور الخالية ثم تنظر فيما يعرض عليها لتبدى رأيها فيه ثم تنفض عقب فراغها من الادلاء بهذا الرأى .

أما الشعب فانه كان يتشوق الى ذلك العصر الذى يستطيع فيه أن يحرر نفسه من قيود الماضى فيطلق صوته ليملأ به الأسماع ويطلق يده ليملأ بها ميادين الأعمال . فما هو الا أن دعا الملك إلى هذه الانتخابات العامة حتى رأى الشعب أن الفرصة التى يترصدها قد حانت فشمر وتأهب حتى لا تفر منه وليأخذ بناصيتها وهى مقبلة . وأصر من البداية على أن يكون نوابه قدر نواب الأشراف ورجال الدين مجتمعين حتى لا يضيع صوته بجانب صوتيهما . وكثرت فى هذا البحث كتابات المفكرين والعلماء وانضم نكر الى رأى الشعب ونصح بقبول مطلبه فتقرر أن يكون عدد نواب الشعب مساويا لمجموع نواب الأشراف ورجال الدين . وكانت هذه أول حلقة فى سلسلة الانتصارات الطويله التى أحرزها الشعب فى نزاعه مع الحكومة .

ثم بدأت عمليـة الانتخاب فى أنحاء فرنسا . وكان الناخبون فى كل دائرة يجتمعون ويعلنون عن رغباتهم ومطالبهم قبل أن ينتخبوا نوابهم . ويدونون هذه المطالب فى محاضر لتكون بمثابة عهد على نوابهم فى الجمعية . وبذلك توفرت لفرنسا مجموعة كاملة وافية من تلك المطالب التى اعتبرت فيما بعد برنامجا عاما تولى رجال الثورة تحقيق ماجاء فيه رويدا رويدا . واليك أهم مادون من تلك المطالب :

(١) أن لاتقرر الجمعية العمومية ضريبة ما إلا بعد أن يحقق دين الحكومة وتضمن حرية الأفراد .

(٢) أن تتعهد الجمعية العمومية بوضع دستور للبلاد :

(٣) أن يتقرر فى هذا الدستور :

(ا) مبدأ مسئولية الوزارة .

(ب) مبدأ سيادة الأمة .

(ج) مبدأ المساواة أمام القانون والمساواة فى الضرائب والوظائف .

(د) وان يكون الانتخاب أساس كل سلطة .

(٤) أن تجتمع الجمعية العمومية فى مواعيد محدودة دورية .

(٥) أن يلغى نظام (الخطابات المختومة) .

أما الحفلات الانتخابية فكانت الحماسة فيها بالغة أقصى حدودها ولم تكن تسمع من منابرها الا أشد الحملات على النظم العتيقة ووجوب التخلص من الماضى ودفنه وابتداء حياة جديدة يكون عمادها صوت الشعب ويكون شعارها ارادته .

وهكذا كان الملك وحاشيته وأشرافه فى واد بالنسبة لهذه الجمعية العمومية والشعب فى جهة مقابلة يسير فى واد آخر .

وأخيرا حل يوم ٥ مايو سنه ١٧٨٩ م وملأ الناس طرقات باريس المؤدية الى فرساى واحتشدوا فيها مبكرين ليشهدوا ذهاب الأعضاء الى دار النيابة فكانوا كلما مر بهم نائب من نواب الشعب صاحوا باسمه وهتفوا بحياته وزودوه بعبارات التحية والتشجيع فاذا مر بهم نائب من نواب الأشراف أو رجال الدين أمسكوا ووجموا وقابلوه بالصمت الرهيب .

وأخيرا أيضا تكامل الجمع داخل القاعة واتخذ رجال الدين مقاعدهم على اليمين وجلس الأشراف على الشمال وكانت مقاعد نواب الشعب تجاه العرش فى مؤخر القاعة . ولما دخل نكر قوبل بالحماسة الشديدة . ولا غرو فانه كان رجل الساعة الذى تتجه اليه أنظار العامة وينعقد حوله رجاءهم . ثم أقبل بقية الوزراء وجلس كل واحد منهم فى مكانه الذى أعد له . وعند ذلك ظهر الملك

وتبعته الملكة والأمراء ومن ورائهم حاشية فاخرة ساطعة لامعة. فدوت القاعة بالتصفيق والهتاف عند دخول الملك وبعد أن استوى على عرشه ووضع قبعته على رأسه لبس النواب جميعا قبعاتهم على خلاف ما جرى به العرف من بقاء الطبقة الثالثة عارية الرأس أثناء الانعقاد. وهى ظاهرة تافهة ما كنا لنرويها فى هذا الموجز لولا ما توسمنا فيها من المغزى العميق الذى تتجلى فيه روح الشعب وعزمه على محو الفوارق والوقوف فى صف واحد مع بقية الطبقات.

واشرأبت الأعناق لاستماع خطاب العرش. فوقف الملك وتلا الخطاب الآتى بصوت تملأه العاطفة والانفعال:

« أيها السادة:

ها قد حل ذلك اليوم الذى طال شوقى لحلوله وهاءنا أرى حولى نواب تلك الأمة التى أرى من مجدى أن أكون عليها حاكما. ولقد طال المدى على آخر مرة انعقدت فيها هذه الجمعية حتى لقد وقع فى الحسبان أنها لن تلتقى بعد ولكنى لم أتردد لحظة واحدة فى العودة الى عرف قد تستمد الدولة منه قوة جديدة ويتحقق به للشعب عنصر جديد من عناصر السعادة.

... ...

وأنه ما من مقصد نبيل يرجى منه الخير للمصلحة العامة وما من واجب يقع على عاتق ملك بوصف كونه الصديق الأول لشعبه الا ولكم أن تطمعوا فيه عندي وأن الأمل الذى يملأ قلبي والأمنية الحارة التى تملك على نفسى هى أن أرى هذا المجلس وقد ساد فيه التفاهم والوفاق وأن أرى أن هذا الاجتماع يكون فاتحة عصر رخاء وسعادة لهذه البلاد . ان هذا يكون لى من الله خير جزاء على كرم مقاصدى وصدق محبتى لشعبى » اهـ .

فقابل النواب هذه الأمانى الطيبة والوعود الحسنة بالتقدير العميق والتصفيق الشديد . ثم قام وزير الحقانية وكان خطابه بمثابة استعراض لأفضال الملك وأنه لم يتردد فى اجابة مطالب الشعب العادلة فبقى على الشعب واجب الحذر من الاستماع للمتهوسين أصحاب البدع وأنصار التجديد ! والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يحدث انقلابا خطيرا فى نظم البلاد .

وخطب بعده نكر وكان الشعب يرتقب دوره بفارغ الصبر لعلو مكانته فى النفوس ولحسن بلائه فى المطالبة بتسوية نواب الشعب بنواب الطائفتين الأخريين ولكن نكر ظل يتكلم بالأرقام ويستعرض من حسابات الدولة ما أثقل به رأس الجميع وبعد أن استغرق حديثه فى هذه الشئون نحو ثلاث ساعات أجهد فيها أذهان

سامعيه وأكدهاختم خطابه بكلام فاتركان يراعى فيه أن لايحرج مركز الحكومة وأن لايتورط مع الشعب .

على أن المشكلة التى كان ينبغى أن يعالجها خطاب العرش وأن يناقشها الوزراء فى خطبهم التالية بقيت لم تمس . وكانت أول ماشغل المجلس بعد فراغه من الاستماع لتلك البيانات المطولة التى لم تصرف ذهنه عن الاشتغال بها . وذلك أن الشعب انما قصد الى الاشتراك مع نواب الأشراف ورجال الدين فى المداولات والتصويت حينما مهد لذلك بمطالبة الملك بأن يصدر ذلك القرار القاضى بان يكون عدد نوابه مساويا لنواب الطائفتين الأخريين . ولكن الأشراف ورجال الدين أصروا على أن ينفرد كل مجلس بنفسه وأن تصدر الأصوات بالمجالس لا بالرءوس ليفسدوا بهذه الطريقة على نواب الشعب ما كسبوه بكثرة عددهم فبذل نواب الشعب ما استطاعوا من الجهود للتوفيق وتوحيد الكلمة ومحو الفوارق بين الطوائف فى الجمعية ولكن حبط سعيهم أمام عناد الاشراف وهكذا نشأت جرثومة ذلك النزاع السياسى الهائل الذى انتهى بقلب نظام الحكم فى فرنسا .

الفصل الثالث

الجمعية الوطنية

الثورة تبدأ يوم ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩ :

ظل نواب الطبقات الثلاثة فى أخذ ورد نحو خمسة أسابيع خرجوا منها كما دخلوا فيها متنازعين غير متفقين . فعول نواب الشعب أخيرا على العمل بمفردهم وقرروا دعوة نواب الأشراف ورجال الدين الى الحضور بقاعة الشعب للقيام بالواجبات التى انعقدت الجمعية العمومية من أجلها وقرروا كذلك أنهم يمثلون نحو ٩٦ ٪ من مجموع الأمة فهم لذلك أصحاب السلطة الشرعية فيها . واجتمعوا فعلا فى اليوم السابع عشر من شهر يونيه (١٧ يونيه سنة ١٧٨٩) وأطلقوا على أنفسهم اسم الجمعية الوطنية منكرين بذلك وجود الطوائف الأخرى .

وهنا لا ينبغى أن تفوتك أهمية هذا القرار فلقد كان الملك وحزبه يستندون الى أساس قانونى حين كانوا يقولون إنهم هم أصحاب السلطة بحكم التقاليد وبحكم الواقع . أما الشعب فلم يكن

يستند إلا الى النظرية الحديثة . نظرية سيادة الأمة التى تلقاها عن روسو وغيره من الكتاب . فترى من ذلك أن الصراع فى الحقيقة كان قائما بين القانون القديم الذى جرى العمل به ونظرية سياسية حديثة يريد الشعب أن يتمسك بها ويحلها محل ذلك القانون القديم .

قرارات ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩ :

ولقد أعلن نواب الشعب فى يوم ١٧ يونيه أنهم هم «الجمعية الوطنية» . وقرروا بعد ذلك فى نفس الجلسة عدم شرعية الضرائب الحالية ولكنهم مع ذلك قرروا الاستمرار فى جبايتها مادامت الجمعية منعقدة وضمنوا بهذا القرار الحكيم أن لا يفاجأوا بمرسوم يحل مجلسهم ويكون سببا فى إيقاف دفع الضرائب . وقرروا كذلك انشاء لجنة للتموين كى تنظر فى مشكلة الغذاء وقلته وما يتهدد البلاد من المجاعات وكانت هذه القرارات أول صوت رفعه الشعب فى وجه السلطة القديمة . فاذا أردت أن تحدد بدء الثورة تحديدا علميا دقيقا فانقش فى لوحك هذا التاريخ — ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩

الفصل الرابع

اليمين التاريخية

كان يوم ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩ فى تاريخ فرنسا يوما مشهودا له ما بعده . ولقد صعق الأشراف و رجال البلاط لوقع قرارات الجمعية الوطنية فيه فأجمعوا رأيهم على وجوب ذهاب الملك الى دار الجمعية فى موكب رسمى ليعلن أن قراراتها التى صدرت فى ذلك اليوم لاغية وليأمر بوجوب انفصال نواب الطبقات الثلاث وليضع بنفسه برنامج الأعمال التى يتناقش فيها المجلس ولو أنهم أفلحوا فى مفاجأة الجمعية بهذه المناورة الملكية لأمكن احتمال نجاحها ولكنهم آنسوا من بعض رجال الدين ميلا الى الانضمام للجمعية العمومية فأشفقوا من ذلك وخشوا أنه اذا تم كان تعزيزاً لمركز الجمعية فرأوا أن يحولوا دون انعقادها حتى يحل موعد تلك الزيارة الملكية التى أعلنوا أنها ستكون فى ٢٣ يونيه . وأغلقت قاعة الاجتماع فى ٢٠ يونيه بحجة أن العمال سيتولون طلاءها واعدادها لدخول الملك . فلما التقى النواب على بابها المغلق فى صبيحة ذلك اليوم واعترضتهم قوة كانت مرابطة هناك لمنع اجتماعهم أحرجت صدورهم واندفع بعضهم

القسم التاريخى

يقترح أن يتوجه الأعضاء الى قصر الملك نفسه و يعقدوا اجتماعهم تحت نوافذه ولكنهم أخيرا انصرفوا الى مكان فسيح مجاور كان يتخذ (ملعبا للتنس) وهناك تباحثوا فى الأمر فقرروا القرار الآتى :

« انه لما كانت مهمة الجمعية الوطنية هى وضع دستور للبلاد وتنظيم القواعد الأساسية للقانون العام وتأييد المبادىء الحقيقية للمملكة فلا يحول أى مانع دون اجتماعها وموالاة أبحاثها ومداولاتها فى أى مكان تنعقد فيه وحيثما يجتمع أعضاؤها فالجمعية الوطنية تعتبر منعقدة بصفة رسمية . وعلى ذلك تقرر الجمعية أن يقسم أعضاؤها اليمين على ألا يتفرقوا ولا ينفرط عقدهم وأن يجتمعوا فى أى مكان تدعو اليه الظروف الى ان تتم وضع دستور للمملكة وتقيمه على دعائم ثابتة » .

وقد كان الأعضاء يقسمون هذا القسم التاريخى العظيم بحماسة شديدة والشعب محيط بهم فى صمت يتجلى فيه عطفه عليهم وتأييده لهم . وقد رسم المصور الشهير (داڤيد) صورة رائعة لهذا الاجتماع ترى اليوم فى متحف اللوفر ويتوسم فيها الناظر كل ما كان يحف بهذا المشهد العظيم من الروعة والجلال[1] .

(١) « الجمعيات الوطنية » تأليف الأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

الفصل الخامس

وقفة ميرابو الشهيرة

عاد النواب فى اليوم التالى الى ملعب التنس فوجدوا أن بعض الأمراء قد أعده للعب فتوجهوا الى كنيسة « سان لوى » حيث انعقدوا برا بقسم الأمس وهنا انضم اليهم كثير من رجال الدين واستقبلهم نواب الشعب فى صفوفهم بالترحيب .

ودخل الملك القاعة فى ٢٣ مايو وعليه كل مظاهر الأبهة . ومخيلة العهد القديم وخطب فيمن بها قائلا أن مندوبى الأمة لا بد أن يكونوا طبقات ثلاثا كل يعمل على حدته . وأنه ينبغى على الجمعية أن تكف عن الخوض فى الموضوعات المثيرة للنفوس كموضوع الامتيازات وغيره . وأعلن عدم شرعية (قرارات ١٧ يونيه) وبنى على ذلك أنها تعتبر لاغية وأمر بحل المجلس على أن تجتمع كل طائفة من طوائفه ابتداء من الغد فى مكانها الخاص . ثم ختم حديثه بقوله

« وانى لاقول لكم بحق أنه مامن ملك كان لشعبه مثل ما أنا لكم . فكونوا معى أكن معكم والا قمت وحدى بالعمل لتحقيق مصالح الامة واعتبرت نفسى مندوبها الفرد ! »

وانصرف ومن خلفه ذنب طويل من الأشراف ورجال الدين — أما نواب الأمة فظلوا فى أماكنهم ساكنين مطرقين الى أن قام ميرابو فيهم خطيبا وشق هذا الصمت المخيم عليهم بقـــوله :

« أيها السادة :

انى أعترف لكم بأن الذى سمعتم الآن ربما كان فى صالح الأمة ولكنى أشك دائما فى كل ماتهديه اليناير الاستبداد وأوجس منه خيفة . فما هذه الدكتاتورية الشائنة . انهم يريدون أن يكرهونا بقوة السلاح على أن نسلك سبيل السعادة التى يرسمونها لنا . فمن هـذا الذى يصدر هذا الامر ؟ انه وكيلكم ! من هذا الذى يضع هذه القوانين ؟ انه وكيلكم أيضا ! انه هو عين الشخص الذى كان ينبغى عليه أن يتلقى هذه الاوامر عنكم . نعم أيها السادة عنا نحن الذين نمثل ٢٥ مليونا كلهم ينظرون الينا ويتطلعون الى ماسنحمل اليهم من السعادة ولكن ها أنتم تجتمعون وتتناقشون تحت قوة السلاح . فمم يخشون علينا ؟ أين هم أعداء الشعب الذين يريدون حمايتنا من أيديهم ؟ انى أطلب اليكم أن تكونوا عند حد القسم الذى أقسمتموه . ان هذا القسم يمنعكم أن تنفضوا حتى تضعوا لهذه الامة دستورا ! » .

ورأى كبير الأمناء أن النواب لم ينفضوا فعاد اليهم وذكرهم بأمر الملك فانبرى له ميرابو وصاح فى وجهه قائلا :

« اذهب الى سيدك وأبلغه انا نحن هنا بأمر الشعب ولن نبرح مكاننا هذا الا مسوقين بأسنة الحراب ! » — وما كاد ميرابو يتمم كلمته هذه حتى صاح النواب بصوت واحد « نعم هذه هى ارادة الجمعية » . فانسحب كبير الأمناء . وقام الأب سييس أحد أعلام الجمعية والمحرر لصيغة اليمين التاريخية التى أقسمها النواب فى ملعب التنس فخاطب زملاءه الأعضاء قائلا :

« أيها السادة ! انكم الآن كما كنتم بالأمس ! هلموا لنتداول فيما لدينا من الأعمال » .

فأخذت الجمعية فى أعمالها فعلا وقررت التمسك بقرارات ١٧ يونيه وأعلنت حق الحصانة النيابية بالنسبة لأشخاص النواب واعتبار كل من يعتدى عليهم مرتكبا لأعظم الجرائم . ولما وصل الى الملك تفصيل ما جرى رأى من الحكمة ألا يلجأ الى القوة وقال كلمته المأثورة :

« اذا كانوا لا يريدون مغادرة المكان فدعوهم وشأنهم[1] ! » .

---

(١) الجمعيات الوطنية (للرافعى) .

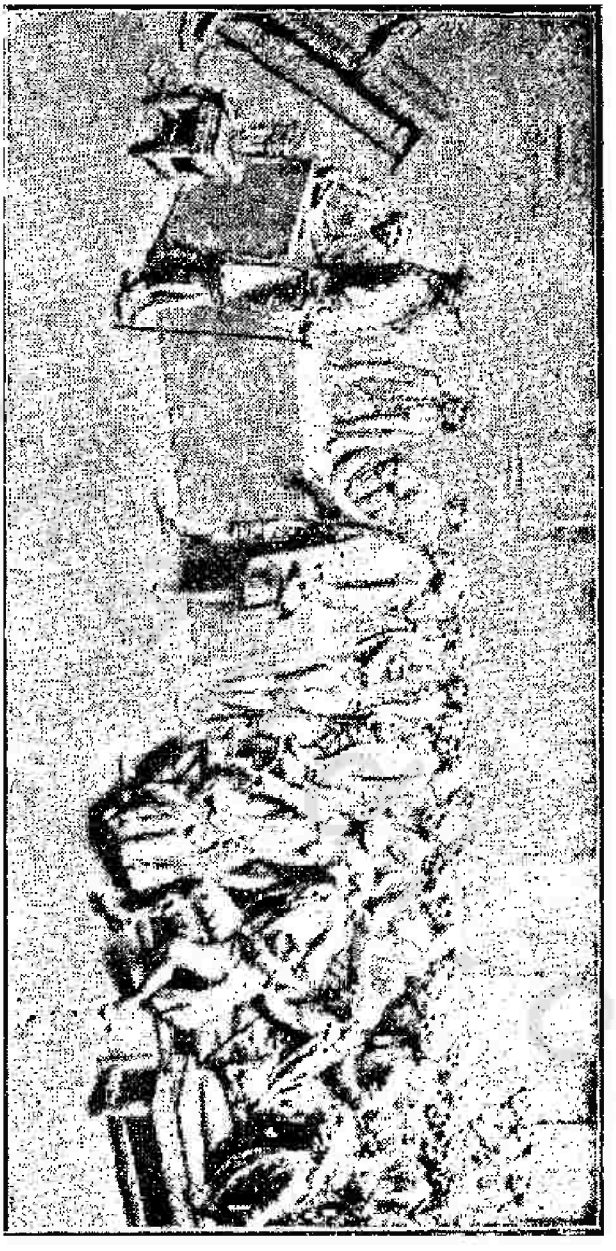

ميرابو : أبلغ سيدك أننا هنا بإرادة الشعب ولن نبرح المكان إلا على أسنة الحراب !

وفى اليوم التالى انعقدت الجمعية وعادت الى صفوفها أغلبية رجال الدين واشترك معهم فى ذلك ٤٣ شريفا كان من بينهم دوق أورليان ابن عم الملك فأرسل الملك فى ٢٧ يونيه الى بقية الأشراف ورجال الدين يوعز اليهم بالانضمام الى الجمعية فساروا اليها كارهين متثاقلين .

ولقد أراد دوق لكسمبرج زعيم الأشراف أن يعترض الملك فى أمره هذا فقال له : « إن هذا الأمر يا مولاى يعتبر بمثابة إعلان من جلالتكم بأن سلطة الجمعية الوطنية أصبحت فوق كل سلطة . والأشراف مستعدون لأن يفدوا جلالتكم بأرواحهم » . فما كان من الملك الطيب القلب إلا أن أجابه بكلمته المشهورة الأخرى :

« انى لا أريد أن يموت أحد من أجلى ! » .

الفصل السادس

مقاومة البلاط

وكأنما أخذت رجال البلاط نوبة إزاء هذا الاندحار الذى أصاب نفوذهم على يد الشعب . فتآمروا على الانتقام لأنفسهم وبدأوا باقصاء نكر عن الملك حتى لا يبقى تحت تأثيره هو ومن على شاكلته من المصلحين ووكلوا بالملك زوجته مارى انتوانت وأخاه (الكونت أرتوا) ليتوليا اقناعه بوجوب العدول عن خطة المسالمة وضرورة الالتجاء الى القوة فى استعادة ما خسرته الملكية من النفوذ فى الأيام الأخيرة . فما كان أسرع الملك الى الاقتناع بصدق نظرهم والنزول على ارادتهم . ولم يمض غير قليل حتى أحاطت باريس قوة عظيمة لا تقل عن ٤٠,٠٠٠ جندى فلم تطمئن الجمعية الى حشد هذه القوة حول باريس فى تلك الظروف . ووافقت على اقتراح ميرابو الذى يقضى بارسال وفد الى الملك يلتمس منه سحب هؤلاء الجنود . فلما ذهب الوفد أجابه الملك بأنه هو صاحب السلطة المطلقة فى تحريك جنوده حيث يشاء وان هذه القوة لم يقصد بها مع ذلك الا المحافظة على النظام . وأنه ينصح أعضاء الجمعية

بالانسحاب الى ما وراء باريس إن كانوا يخشون من هذه الجنود بأسا .

فأثار هذا الرد جميع الخواطر وجاء محققا لكل ما ساور الأذهان من المخاوف والأوهام واضطربت له المدينة اضطرابا عنيفاً و بالغت الصحف فى تصوير الحالة وتنافس الخطباء فى إلهاب الجماهير و إذكاء حماستهم فكنت لا ترى حيث تسير الا خطيبا يعد للناس ما يتهددهم من الأخطار و يناشدهم القيام فى وجه الظلم والظالمين والا جماعة أحاطت به فوقفت تستمع له بأفواه متقلصة الشفاه ووجوه ممتقعة اللون وعيون تنبعث منها نوايا الشر ولم يبق لانفجار هذا المرجل الفوار إلا حماقة من حماقات البلاط التى سارت به نحو الهاوية هذا الشوط البعيد وكان جديرا به أن يتوقاها و يتجنبها فى هذه الأوقات العصيبة ما استطاع . غير أنه ما لبث ان جاد بتلك الحماقة وأوقد الفتنة التى كان عليه أن يحول دون اشتعالها .

ففى اليوم الحادى عشر من شهر يوليه بينما كان نكر وزير الشعب على مائدة غذائه جاءه من الملك رسول برسالة يبلغه فيها أنه حكم عليه بالنفى وأنه يجب عليه مغادرة البلاد فى الحال . ففرغ الرجل من طعامه . ولم يفض الى أحد ممن كانوا معه بفحوى الرسالة واصطحب مدام نكر معه فى عربته . وسار بها الى حدود فرنسا .

غير أن ما وقع لنكر فى داره فى ذلك اليوم لم يلبث أن تجاوبت به انحاء باريس بعد ظهر اليوم التالى . وسرعان ما خرج الناس من ديارهم ألوفا واكتظت بهم الطرقات . وساروا الى حدائق (الباليه رويال) حيث كان يتبارى الخطباء فى تهييج عواطف الناس . كل واحد فوق مائدة من موائد الحديقة يحيط به شيعته ومريدوه . وكان من بين هؤلاء الخطباء فى ذلك اليوم (كامى ديمولان) وهو خطيب شاب ميز نفسه فى الأيام السالفة بحماسه الفياض وبيانه الخلاب . فاحتاط الناس بمائدته ووقف هو بينهم أحمر العينين وفى يده مسدس مشهور ثم قال : « أيها المواطنون ! ليس لدينا وقت نضيعه . لم يكن خلع نكر الا نذيراً بمذبحة هائلة كمذبحة سنت برثلميو يكون ضحاياها من الوطنيين المخلصين . فى هذه الليلة ستقوم الفرق السويسرية والألمانية من ثكناتهم ليذبحونا جميعا . لم يبق أمامنا الا طريق واحد . ذلك أن نحمل السلاح ! » . فقوبلت كلماته هذه بصيحات الاستحسان العنيفة . فعاد واقترح عليهم أن يعملوا على تمييز أنفسهم بوضع شارات تجعلهم فى وسط المعمعة يتعارفون ويتكاتفون . ثم قال :

« فهل تختارون اللون الأخضر — لون الأمل — أم الأحمر لون الحرية ؟ » فصاحوا به جميعا « الأخضر ! الاخضر ! » فوثب

كلى ديمولان فى الحديقة يخطب الجماهير

ديمولان عن ظهر (منبره) وأخذ بغصن فقطع طرفه ثم وضعه في جانب قبعته فحذا حذوه سامعوه حتى لم يعد يبقى في الحديقة غصن أخضر (١) !

وانطلقت هذه الجموع كلها في صورة مظاهرة هائلة كان يتزايد عددها كلما جازت شارعا جديداً . وكان في مقدمتها جماعة يحملون تماثيل نصفية للوزير نكر ولدوق أورليان أيضاً لأنهم سمعوا أنه ستصدر الأوامر بنفيه كذلك كما نفي نكر . فلما بلغوا (ميدان فندوم) لقيتهم شرذمة من الجنود الألمانية فتصدت لهم وأرادت تفريقهم فامطرها المتظاهرون وابلا من الحصى والحجارة فولت امامهم الأدبار . وساروا حتى بلغوا (ميدان لويس الخامس عشر) وهناك قابلتهم قوة أخرى وأطلقت عليهم النار فقتل بعض المتظاهرين وتفرق الباقون . وتعقبهم قائد القوة هو وفرسانه شاهرى السيوف فوقعت طعناتهم على بعض النظارة ممن لم يشتركوا قط في المظاهرة فبلغ الاستياء منتهاه . وعم التذمر . وانتشرت « الدعوة الى السلاح » في كل مكان !

---

(١) French Revolution (Mignet.)

الفصل السابع

يوم ١٤ يوليه فى باريس

سقوط الباستيل

عرفت أنه فى يوم السبت ١١ يوليه نفى نكر . وفى يوم الاحد ١٢ يوليه قامت تلك المظاهرات التى أفسدها البوليس وأسال فيها الدماء وتسبب بذلك فى انتشار الناس فى طلب السلاح . ولقد أدركت الجمعية الوطنية سوء عاقبة هذه الحركة اذا هى تركتها تجرى فى مجراها ولم تعمل على تلافيها . فبادرت بارسال وفد الى الملك ليطلعه على حقيقة الخطر الذى بات يتهدّد البلاد ويلتمس منه سحب الجنود الأجانب من باريس وتسليم المدينة الى حرس من الوطنيين . ولكن الملك رفض هذه المطالب فعاد الوفد يجرر أذيال الخيبة . غير أن هذا لم يفت فى عضد الجمعية . بل هيأ لها فرصة أخرى لتظهر فيها أنها كانت جديرة بذلك الاحترام الذى سطره لها التاريخ على صفحاته فانها اجتمعت لساعتها وقررت القاء مسئولية الموقف على الوزراء الحاليين الذين خلفوا نكر

وزملاءه كما قررت التمسك بوجوب استبعاد الجنود الأجانب وانشاء حرس وطنى . وأخيراً قررت أنه خوفاً من احتلال الحكومة لقاعة المجلس أثناء الليل ومصادرة الاجتماع يجب أنه لا تنفض الجمعية بل تداوم اجتماعها ليل نهار ويتناوب الأعضاء فى ذلك فيجلس بعضهم طول الليـــل على أن يحل محلهم غيرهم فى الصباح . وعين لا فاييت وكيلا للجمعية إشفاقا على الرئيس (بايى) من كثرة العمل ووفرة المجهود .

هذا ما كان من أمر الجمعية واحتياطاتها . أما الشعب فان هياجه كان يتزايد كل ساعة وفى صبيحة الاثنين ١٣ يوليه اكتظت الميادين بالناس وتألفت فرق وطنية من الاحياء المختلفة فكنت تسمع أن هذه فرقة متطوعى (الباليه رويال) وتلك فرقة متطوعى (التويلرى) وهكذا . وسرعان ما تم تنظيم هذه الفرق . وجعل على كل واحدة منها ضابط وتولى قيادة الجميع قائد عام . ثم ألغيت الشارة الخضراء وجعل مكانها اللونان الأحمر والأزرق وهما لونا مدينة باريس وبدأت دوريات المتطوعين تطوف شوارع المدينة فعلا . ولم يكن ينقصها غير السلاح .

وفى يوم ١٤ يوليه عاد الناس يلتمسون السلاح فى كل مكان وقد ضاقوا ذرعا بتلك الوعود التى كانت بلدية باريس تعللهم بها

كلما طلبوا إليها أن تمدهم بالسلاح فحملوا على (الأوتيل ديزانفاليد) وقد بلغهم أن بها كمية هائلة من الأسلحة واقتحموها رغم حاميتها واستولوا منها على ٢٨ ألف بندقية وأخذوا كل ما كان فيها من سيوف وخناجر وأسلحة متنوعة .

وكانت قد راجت إشاعة منذ الصباح بأن الحكومة صوبت مدافعها من سجن الباستيل على شارع سانت انتوان استعداداً لمقاومة الجماهير وتشتيتهم والباستيل إذ ذاك عنوان الاستبداد وركن من أركان الاستعباد . وكان حصناً عتيقاً ذا حجور معتمة بها سلاسل وأغلال أعدها الملوك لأعدائهم الذين يحقدون عليهم لأمر ما عظم أم تفه . فكانوا يلقونهم فيه من غير تحقيق ولا محاكمة حتى إذا مات أحدهم فى ظلمته الموحشة أخرجوه ودفنوه سراً باسم مستعار ليظل أمره مكتوماً إلى الأبد .

وقد أبدع الكاتب الانجليزى تشارلس دكنز فى تصوير هذا السجن وبيان أثره فى نفوس ضحاياه حين كتب روايته المشهورة (قصة المدينتين) فانه جعل مدار قصته نزيلا من نزلاء ذلك السجن كان فى شبابه طبيباً معروفاً فى باريس . ووقع له يوما وهو فى نزهة على ضفاف السين أن اعترضته عربة بها اثنان من الأشراف حملاه على أن يذهب معهما إلى قصرهما وهناك عرضا

عليه فتاة أخذتها نوبة من الجنون وفتى جريحا فى صدره يكاد يكون فى الهالكين . فلما وقف الطبيب بالفتى عرف منه أنه شقيق تلك الفتاة وأن أخته تزوجت منذ زمان من شاب تحبه ويحبها ثم رآها أحد النبيلين صاحبى القصر فحدثته نفسه باغتصابها فعرض على زوجها أن يحملها على ما أراد فأبى كل الأباء فسامه سوء العذاب وجرعه البلاء ألوانا حتى قضى نحبه . فمد يده إلى زوجته وسباها فما بلغ الخبر أباها حتى مات غما . واقتفى الغلام أثر أخته إلى هذا القصر فكان جزاؤه ذلك الجرح المميت . وقد قام الطبيب على علاج الفتاة بعد موت أخيها هذا أسبوعا كاملا ولكنها لحقت بأفراد أسرتها جميعاً إلى الآخرة . وقد رأى الطبيب أن يشكو أمر هذين الشريفين الى الحكومة فقرر ما وقع له فى رسالة ثم رفعها الى الوزير ولكنه لم يلبث أن أخذ من داره عنوة وألقى فى سجن الباستيل بعد أن قابله الاخوان فى الطريق وأظهرا له رسالته التى بعث بها الى الوزير ومزقاها على مرأى منه أما هو فلبث فى السجن ثمانية عشر عاما خرج بعدها كما تخرج الموتى من القبور يوم النشور لاتقوى عيناه على مواجهة الضوء ولاتعى ذاكرته صورة أقرب الناس اليه . وانما أوردت لك هذه الصورة لتعرف منها نوع الجنايات التى كان يلقى مقترفوها فى هذا السجن من أجلها

ولنعرف بأى عين كان ينظر الناس الى هذا السجن ولتقف على ما كانت له من رهبة فى نفوسهم

فلما سمعوا بأن الحكومة قد صوبت مدافعها عليهم من فوقه سار إلى رئيس حاميته وفد منهم يطالبه بسحب المدافع وكانت الجموع قد بدأت تتدفق أفواجها من أنحاء باريس منذ الساعة التاسعة صباحا وهى تهتف وتصيح « الى الباستيل ! الى الباستيل ! » وظلت كذلك الى الثانية بعد الظهر . فاجتمع فى الساحة التى أمام السجن خلق كثير وهم يحملون الحراب والسيوف والبنادق ووقف حراس السجن فى أماكنهم على أتم أهبة ورفعت الجسور المتحركة عن الخندق الذى يحيط بالسجن استعدادا للنزال وامتنع قائد الحامية عن سحب مدافعه

وكان الشعب المتحمس مازال واقفا يصيح « الباستيل ! لا بد لنا من الباستيل ! » وكانت تربط تلك الجسور المعلقة سلاسل مثبتة فى الأرض . فهجم عليها أخيرا رجلان وأعملا فيها ضربا بالفؤوس . وانضم اليهم غيرهم . فلم يلبث الجسر الأول أن هوى الى الأرض وعبر الناس عليه الخندق . واتجه غيرهم الى جسر آخر ليكسروه . ولكن الحامية أطلقت عليهم النار وقتلت منهم كثيرا فزادهم منظر القتلى حماسة وأكسبتهم رؤية الدم المراق وحشية وظلوا

فى مصارعة الأبواب والأقفال والنار من فوقهم تحصدهم حصدا نحو أربع ساعات وأخيرا أقبلت فرقة الحرس الوطنى بمدافعها فتغير الموقف وطلبت الحامية التسليم . أما (ديلونى) رئيسها فقد ذهب الى مستودع البارود الذى بالسجن وفى يده ثقاب موقد يريد أن ينسف به الحصن ومن فيه ولكن رجاله أوقفوه ورفعوا علما أبيض وأداروا فوهات المدافع إلى داخل القلعة رغبة منهم فى التفاهم مع الشعب وتسليم الحامية على شرط أن يسمح لها بالانسحاب آمنة على أرواحها غير أن المهاجمين أصروا على المطالبة بانزال الجسور أولا وفتح الأبواب وصاح رجل ممن كانوا فى الطليعة « أنزلوا الجسور ! لن نمسكم بأذى ! » ففتحت الأبواب وتدفقت الجماهير الى السجن . وكانت أول صيحة تجاوبت فى جوانبه . « نريد رجال الحامية انهم أطلقوا النار على اخوانهم . انهم يستحقون الأعدام ! » ثم اندفعوا خلفهم يتعقبونهم فى كل قاعات السجن ويقتلونهم حيث ثقفوهم .

وبعد أن نقعوا غلة انتقامهم بكثرة ما قتلوا وحطموا ساروا فى موكب حافل ظافر وطافوا أنحاء المدينة مهرجين معربدين حتى أدركهم الأعياء فهجعوا . وعاد اليهم شىء من الهدوء فأخذوا يفكرون فى وسائل الدفاع عن أنفسهم اذ لا بد أن يأتى دور الحكومة فتنزل العقاب بالثائرين فقضوا ليلتهم فى تحصين المدينة بأن خلعوا

الأفاريز وأقاموا المتاريس وحفروا الخنادق واستكثروا من الحراب والرصاص . أما النساء فكانت مهمتهن حمل الحصى والحجارة الى سطوح المنازل تمهيدا لامطارها على رؤوس الجند عند سيرهم فى الطرقات .

وهكذا انقضت سحابة ذلك اليوم المشهود — يوم ١٤ يوليه الذى لا يزال يحتفل به الفرنسيون الى اليوم فى أنحاء العالم بأنه يوم الشعب ! يوم سيادة الأمة ! يوم عيد الحرية !

obeikandl.com

الفصل الثامن

يوم ١٤ يوليه فى فرساى

مؤامرة البـــلاط

كان رجال البـلاط منذ أصابت نفوذهم تلك اللطمة التى تحدثنا عنها فى الفصل الخامس يتآمرون بالجمعية الوطنية وبالشعب ويضعون الخطط لاحداث انقلاب حكومى يعوض عليهم ما خسروه ويعيد اليهم سلطانهم الضائع فتم اتفاقهم على معالجة الموقف بالصورة الآتية .

نظرا لما أعلنته الجمعية الوطنية فى قرارات ١٧ يونيه الشهيرة وما ترتب على ذلك من انتزاع قسط وافر من سلطة الملك لا بد أن يعيـد الملك على مسامع الجمعية تصريحات ٢٣ يونيـه الشهيرة ويحمل أعضاءها بقوة السلاح على قبولها والاذعان لما جاء فيها . ثم بعد ذلك — وعلى الرغم من ذلك — يصدر أمره بحل الجمعية ليتخلص منها ومن قراراتها بصفة نهائية .

ونظرا لأن الجمعية قررت فيما قررته أن الضرائب التى كانت

تجبى فى ذلك العهد ضرائب غيرشرعية ولكنهاقررت كذلك بقاءها بصفةمؤقتة طول مدة انعقاد الجمعية لتقيد الحكومة حتى لاتقدم على حل المجلس وإلا سقط حقها فى جباية الضرائب طبعت الحكومة ما يزيد على ١٠٠ مليون من الجنيهات وأعدتها لمقاومة ما قد يصادفها من العقبات فى جمع المال بعد حل الجمعية

وكان البلاط قليل الثقة بمجهود أهل باريس وقوتهم ولم يكن يتصور أنهم سيوفقون إلى انشاء حرس وطنى منظم مجهز بالسلاح الكافى . ولم يكن يفهم كذلك أن الحركة ستتجاوز المظاهرات وتدخل فى دور العصيان المسلح . فعول على ما عول عليه من حل الجمعية الوطنية والضرب على أيدى الثائرين وكان ذلك يوم ١٤ يوليه نفسه الذى سقط فيه الباستيل . وكانت الجمعية على شيء من العلم بما بيت لها البلاط من النوايا . وكانت قد أوفدت إلى الملك وفدين على أثر ما كان يصل اليها من أنباء الاضطرابات الواقعة فى باريس تلتمس منه سحب الجنود من العاصمة . ولكن الملك لم يعر أحد هذين الوفدين شيئاً مما يجدر بهما من الاهتمام . فلما جاءت أنباء الباستيل جلست الجمعية تعد وفداً ثالثاً لمقـــابلة الملك وإعادة التماساتها السابقة على مسامعه ووقف ميرابو يزودهم بنصائحه قائلا

« أبلغوه أن جنوده الذين غمرونا بقضهم وقضيضهم قد غمرتهم أيدى أمرائه وأميراته وحاشيته بالتحف والهدايا والمنح. أبلغوه أن هؤلاء الجنود الأجانب بعد أن امتلأت أفواههم ذهباً وخمراً باتوا يتغنون باخضاع فرنسا ويتوعدون بتشتيت الحرس الوطنى »

ولكنه ما كاد يتم كلامه حتى أقبل الملك وكان قد وقف على حقيقة ما وقع فى باريس . وطارت نفسه اشفاقاً من هول العواقب فأرسل الى الجمعية من يعلنها بأنه قادم ليطمئن أعضائها بنفسه على حسن نواياه . فقابل الناس هذا الخبر بالاستبشار والتهليل ولكن ميرابو حذر زملاءه من أن يسترسلوا فى عواطف قد تكون سابقة لأوانها ثم عقب بقوله . « فلننظر اذن ما هى تلك النوايا الحسنة التى يريد جلالته أن يفضى بها الينا . ان دماء اخواننا تسيل فى باريس فليكن احترامنا الحزين هو أول مايقابل به الملك نواب هذا الشعب التعس . أن فى صمت الشعوب درساً للملوك ! » فعاد المجلس الى هدوئه وسكونه الذى لازمه طول الأيام الثلاثة الماضية

ودخل الملك بغير حراس . ولم يكن خلفه الا أشقاؤه الأمراء فقابله الأعضاء فى أول الأمر بالصمت العميق. ولكنه تقدم اليهم

وخاطبهم قائلا أنه يثق فى حكمة تصرفاتهم وأنه اعتماداً على حبهم وولائهم له قد أمر بسحب الجند من باريس وفرساى وأنه يعول على اخلاصهم فى تلافى الحالة التى وصلت اليها باريس . فقوبلت كلماته الأخيرة بالارتياح التام والتصفيق . وقامت الجمعية بكامل هيئتها فأحاطت بعربته وشيعته الى قصره وسط التهليل والهتاف ثم عاد فصرح بعزمه على استعادة نكر وطلب الى المجلس أن يتوسط بينه وبين الوزير وأن يعمل على اعادة حسن التفاهم بينه وبين الشعب

وفى ١٥ يوليه سار بهذه الأنباء السارة وفد الى باريس فتلقاه الناس بالترحيب والحماسة واتفقت الكلمة على أن ينصب (بايى) رئيس الجمعية محافظاً لباريس وأن يتولى الجنرال لافاييت رياسة الحرس الوطنى

وسافر الملك من فرساى الى باريس فى ١٧ يوليـــه ليعزز بظهوره شخصياً روح التفاهم الجديد بين الحكومة والشعب . ووافق على تعيين بايى ولافاييت فى مكانيهما . ورأى الثوار اكراماً له أن يضموا لون الملكية الأبيض الى لونيهما الأزرق والأحمر فتألفت من ذلك الراية الفرنسية المعروفة اليوم

وفشلت بذلك مساعى البلاط فى احداث الانقلاب الحكومى

الرئيس بايي (Bailly)

الذى دبروه . وفر كثير منهم الى ايطاليا وغيرها وأعيد نكر . ودخل حدود فرنسا دخول القائد اذا عاد الى وطنه من ميدان القتال وعلى رأسه أكاليل النصر . ولكن لا ينبغى أن ينسى الانسان أنه لم يكن مدينا بمركزه هذا الذى حصل عليه من نفوس الفرنسيين لما قام به من جلائل الأعمال . ولكنه كان مدينا به لما لاقى من الارهاق والاضطهاد على يد الملك والبلاط .

الفصل التاسع

آثار سقوط الباستيل

يجدر بنا قبل أن نختم هذه المرحلة من تاريخ الثورة أن نقف قليلا لنتأمل فيما أحدثه سقوط الباستيل من النتائج الجسام .

لقد كانت المعركة الدائرة بين الشعب والحكومة قبل يوم الباستيل معركة كلامية والنزاع فيها نزاعا سياسيا لا يتعدى القول واصدار القرارات . فالجمعية الوطنية أصدرت قرارات ١٧ يونيه فرد عليها الملك بمناورة ٢٣ يونيه ونجح نواب الشعب فى ضم بعض نواب الطائفتين الأخريين اليهم يوم ٢٤ وأعقب ذلك تسليم الملك فى ٢٧ واصداره الأوامر الى هؤلاء النواب بان ينضموا الى الطائفة الثالثة . كل ذلك كما بينا كان صراعا فى ميدان القول والسياسة وكان لا بد أن ينتقل الصراع يوما ما الى ميدان العمل فتقف قوة مسلحة أمام قوة مسلحة أخرى ولقد وقع ذلك فى ساحة الباستيل يوم ١٤ يوليه وخرج الشعب ظافرا من أول معركة دموية وقعت بينه وبين الحكومة كما خرج ظافرا من جميع المعارك (الدبلوماتية) التى سبقت ذلك .

ولكن لاينبغى أن ينسى الانسان أن رجال الجمعية الوطنية وأهل الطبقة الوسطى لم يكونوا ينظرون بعين العطف الى هذا الفوز الباهر الذى أحرزه الشعب . وهذا الاندفاع الشديد الذى دلت بوادره على وعورة الطريق التى سيركبها العامة فى معارضتهم للسلطة القـــائمة . ولقد زاد الطين بلة أنه ظهر فى هذا الموقف العصيب من جعل دأبه أن يصطاد فى الماء العكر كالدوق أورليان ابن عم الملك فأنه بينما كان بابى ولافاييت يعملان على المحافظة على النظام وبينما كان المجلس يحاول تحقيق رغبة الملك فى الوساطة بينه وبين الشعب كان الدوق أورليان هذا وأمثاله يثيرون خواطر الشعب ويدفعونه الى الثورة والعصيان ، بل بينما كان بابى يعمل ليل نهار لتنظيم أعمال لجنة التموين التى أنشئت فى باريس لوقاية أهلها من المجاعات وارتفاع الأسعار كان دوق أورليان يعمل فى الخفاء على عكس هذه الجهود واحباط هذه المساعى المشكورة فكان يشترى الكميات الهائلة من القمح ويملأ بها خزائنه ليخرجها من السوق ويساعد بذلك على استحكام الأزمة واشتداد الضيق[1]

ولقد كان الدوق أورليان هذا فى أول أمره طامعاً فى الملك والوصول الى العرش ولاسيما بعد أن رأى عقم الملك والملكة وأنهما

(١) Modern Europe (Lodge)

لوی فیلیب — دوق اورلیان

ظلا من سنة ١٧٧٠ الى سنة ١٧٦٨ دون أن يكون لهما عقب.
فلما عولج الملك سنة ١٧٧٧ ووضعت الملكة بنتاً سنة ١٧٧٨ ثم غلاماً سنة ١٧٨١ ضاع أمله وأراد أن ينتقم لنفسه باحراج مركز الملك على النحو الذى أسلفت لك وباثارة الاشاعات السيئة حول الملكة والنيل من سمعتها واخلاصها للملك. وكان ذلك عليه هيناً سهلا بعد ما رأى الناس من سلوك الملكة واستهتارها وبعد ما سمعوا عنها فى قضية الكردينال دى روهان من أنها كانت تكاتب هذا الرجل سراً وأنها قابلته ذات ليلة فى ناحية من نواحى حديقة القصر. وأنها كلفته أن يشترى باسمها عقداً ثميناً من الماس النادر — وعلى الرغم من أن التحقيق أثبت أن تلك المكاتبات كانت زائفة لم تكتبها الملكة وأن المقابلة نفسها كانت زائفة أيضاً لأنها تمت بين الكردينال وبين سيدة أخرى تشبه الملكة فى شكلها. وأن الكردينال كان مخدوعا فى كل ما حصل وأنه كان حسن النية فى كل ما فعل. فان الدوق أورليان وأمثاله استغلوا هذا الحادث لمصالحهم وأثاروا حول اسم الملكة التهم والشكوك ليتسنى لهم تحقيق أطماعهم وتنفيذ نواياهم

ولقد فتح دوق أورليان هذا حدائق قصره للشعب فكانوا يجتمعون فيها ترسم لهم بنفسه خطط المظاهرات ويملى عليهم صور الهتاف ويمدهم بالمال والآراء ويطلقهم على خصومه ويحرشهم

بهم طمعا فى اسقاطهم والوصول الى العرش . وكان ذلك سبباً فى استعصاء الأزمة على من حاول علاجها من المصلحين .

تلك كانت حالة الطبقات المختلفة عقب سقوط الباستيل . فأما السوقة من أهل باريس فقد أضر اهم هذا النجاح وزاد ضراوتهم ما كان يغريهم به دوق أورليان وأمثاله للنكاية بالملك والبلاط . وأما رجال الجمعية وأهل الطبقة الوسطى فكانوا يحذرون الشعب ويراقبون حركاته بغاية الاحتياط حباً منهم فى المحافظة على النظام وأما الملك فكان يريد التقرب من الشعب والتحبب اليه طمعاً فى تهدئته واخضاعه . وأما البلاط فكان لا يزال على عمايته يفكر فى الانتقام وفى اعادة العهد القديم .

أما فى الأقاليم فما كادت تصل أنباء الباستيل الى أهلها ويقفون على ما جرى فى باريس من أعمال العنف حتى سرت اليهم العدوى وأحبوا أن لا يكونوا وراء أهل باريس فى الشهامة والوطنية فأعلنوا العصيان وامتنعوا عن دفع الضرائب المستحقة عليهم للأشراف ثم قاموا الى قلاعهم وهى فى نظرهم تمثل الباستيل فدمروها وأحرقوها . ثم أوقعوا فى أهلها قتلا وتمثيلا . وانتقموا لأنفسهم من مظالم الأجيال السالفة فى أشخاص معاصريهم من الاشراف !

الفصل العاشر

مساء ٤ أغسطس

خاتمة العهد القديم

عرفت أن المركيز لافاييت قائد الحرس الوطنى كان زعيم النبلاء الأحرار الذين آزروا الثورة وجاهروا بتأييد مبادئ الحرية والمساواة وكان قد اشتهر قبل حوادث الثورة بمحاربته فى صفوف الامريكان فى حرب استقلالهم . فلما أخذت الجمعية الوطنية فى فرنسا على عاتقها وضع دستور للبلاد تقدم اليها لافاييت هذا باقتراحه الوجيه الذى رأى فيه أن تبدأ الجمعية عملها بتقرير مبادئ عامة لحقوق الانسان على مثال اعلان الأمريكان وثيقتهم المشهورة التى ضمنوها حقوقهم فى الاستقلال فى مؤتمر فيلادلفيا سنة ١٧٧٦

فبدأت الجمعية تتناقش فى تقرير هذه المبادئ فى اليوم الرابع من شهر أغسطس سنة ١٧٧٩ ولكن رفع للجمعية فى مساء ذلك اليوم تقرير هام عن الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فى الأقاليم على أثر ما وقع فيها من التخريب بعد سقوط الباستيل

وتلى هذا التقرير على الاعضاء وكان مما ورد فيه أن الخطابات تترى من جميع الأقاليم وفيها أن ممتلكات الناس على اختلاف أنواعها أصبحت نهباً يتقاسمه العابثون الأشرار. وأنهم يحرقون قصور الأشراف فى بعض الجهات ويخربون الأديرة و يسلبون كل ما وصلت اليه أيديهم فى مزارع الأغنياء. وأنهم قد كفوا عن دفع ما عليهم من الأموال الأميرية والضرائب الاقطاعية. وأن القوانين أصبحت ملغاة لا عمل لها والحكام أصبحوا صوراً لا سلطان لهم.

فرأت الجمعية ازاء هذه الحالة أن تعمل على تهدئة الشعب من جهة وتحقيق رغباته من جهة أخرى بأن تعلن انتهاء العهد القديم. و بطلان جميع الامتيازات ولكنها أشفقت أن يكون مثل هذا الاعلان مدعاة الى رجوع الملك الى صف الأشراف وسبباً فى احداث مشاكل جديدة غير أن الله وفقها فى الوصول الى هذه الغاية توفيقاً تاماً اذ قام أحد الأشراف واقترح على زملائه أن ينزلوا عن امتيازاتهم فقوبل اقتراحه بالتصفيق الشديد وصيحات الاستحسان العالية واهتزت أريحية الأشراف تحت تأثير هذه الحماسة البالغة وغلب الانفعال على عواطفهم ورأوا أن الظروف تقضى باندماجهم فى جمهور الشعب وأخذوا يتنافسون فى الأدلاء بأمثال هذا الاقتراح

ويفاخر كل واحد منهم بأن يعرض على الجمعية النزول عن حق من الحقوق القديمة سواء أكان يملكه أم لا يملكه. وبقية الأعضاء من حولهم يقابلون هـذه المباراة بالتحية الكريمة والهتاف الحاد الى أن انتصف الليل وقرارات النزول تنهال سراعاً بعضها فوق بعض حتى لم يعد يبقى شيء من أثار العهد القديم.

وختمت الجمعية قراراتها فى تلك الليلة المشهورة بأن أعلنت رضاءها عن الملك لويس السادس عشر وتبرعت له بلقب «معيد الحرية الى فرنسا».

وأقيمت قبيل الصباح صلاة شكر لله على هذا التوفيق

ولقد كتب بعض أعداء الثورة عن هذه الليلة فوصفها بأنها كانت (سنت برتلميو الملكية) والحقيقة أنها لم تكن الا (سنت برتلميو الامتيازات ومساوىء الملكية) فانها اكتسحت رذائل عهد الأقطاع وأعلنت انتهاءه وحررت أعناق الناس من أغلال السخرة. ومن قيود الصيد وارهاق الضرائب الفادحة ووقفت حداً فاصلا بين عهد قديم كان كل شيء فيه ملكا لبعض الأفراد وعهد جديد أصبح كل شيء فيه ملكا لمجموع الأمة. لقد غيرت تلك الليلة وجه فرنسا فأصبح الفرنسيون جميعاً متساوين فى الحقوق وأصبح لكل واحد منهم الحق فى شغل أى منصب من المناصب

العالية . وفى أن يطمع فى امتلاك شىء لنفسه خاصة دون أن يكون لغيره حقوق عليه . وفى أن يختار لنفسه ما شاء من المهن والصناعات بعد أن كان محروماً من هذا الحق أو مقيداً فى استعماله بأثقل القيود . ولقد تمت فى تلك الليلة ثورة لا تقل عن ثورة ١٤ يوليه فى نجاحها وبعد آثارها . فانها منحت الأمة حق السيادة على المجتمع كما أن ثورة ١٤ يوليه منحتها السيادة على الحكومة .

وهكذا مرت حوادث الثورة سراعاً تباعاً ففى ١٧ يونيه قضى على ما بين طوائف الأمة من الفوارق . وانقلبت الجمعية العمومية الى جمعية وطنية .

وفى ٢٣ يونيه قضى على نفوذ الحكومة الأدنى .

وفى ١٤ يوليه قضى على سلطتها المادية — وورثت الجمعية الوطنية ذلك النفوذ كما ورث الشعب هذه السلطة .

وأخيراً حل يوم ٤ أغسطس وكان خاتمة هذا الفصل الاول من رواية الثورة وهو الفصل الذى انتقلت فيه السلطة من يد الى يد . ووقعت فيه تلك التغييرات الاولية التى أقيم عليها بنيان الثورة فيما بعد .